الفصل الخامس

التعلم للكسب

من المألوف أن نسمع الطفل الصغير يعبر فى أحاديثه عن رغبته فى احتراف مهنة معينة فى كبره ، كأن يكون من رجال الشرطة مثلا . وكثيراً ما يبتسم الكبار ويقولون : « سوف نرى » ، أو يذكرون له أنه سوف يغير رأيه ، ويفكر فى حرفة أفضل ، عندما يكبر . وقليلا ما يخطر ببالهم أن عبارة الطفل ليست مجرد نزوة عارضة ، فإن بعض التأمل والتفكير يدل على أن الطفل ينتقى من بين الكبار الذين يقابلهم واحداً فقط يتخذ منه أنموذجاً يحاكيه ، واختياره هذا يقوم على أسباب قوية . فالظواهر العقلية تخضع لقانون العليّة ، شأنها فى ذلك شأن سائر الظواهر الطبيعية والكيميائية والبيولوجية .

حدث ذات مرة أن صبياً كان يسير مع أبيه عندما ضل أبوه طريقه ، فسأل رجل الشرطة أن يرشده إليه . وقد ترك ذلك فى نفس الصبى أثراً عميقاً ، إذ أدرك أن رجل الشرطة يعرف أشياء يجهلها أبوه . وكانت تلك أول مرة يدرك فيها الصبي أن هناك أناساً آخرين أوفر معرفة من الأب

obeikandl.com

الذى كان يظن أنه محيط علماً بكل شىء . ومن ثمّ أصبح رجال الشرطة ، لا الأب ، هو المثل الأعلى الذى يصبو إلى الوصول إليه فى المستقبل .

كذلك أبصر صبى آخر أحد رجال الشرطة يأمر جماعة من الرجال بالتحرك من مكانهم ، بدلا من التسكع على الإفريز وتعطيل حركة المرور . وقد صدع الرجال بالأمر على الفور . ولما كان الصبى معتاداً أن يطيع الأوامر ، لا أن يصدرها ، فإنه اعتقد أن الشرطى شخص واسع السلطان ، ينبغى على الكبار والصغار أن يأتمروا بأوامره ، وينتهوا بنواهيه . وقد تأيد هذا الاعتقاد بإجابات أبيه عن أسئلته ، إذا اكتشف الطفل منها أن أباه يرى أن إطاعة أوامر رجال الأمن أمر عادى لا بد منه . وهكذا يصبح اشتهاء الصبى الطموح لأن يكون من رجال الشرطة أمراً طبيعياً .

ـ ومهنة الطب أيضاً من الرغبات الشائعة . فإن الطبيب قد يؤثر فى الطفل قدر تأثير الشرطى فيه . فالآباء يلجئون إلى استشارته لأنه يعلم من أمور المرض أكثر مما يعلمون ، كما أنهم كثيراً ما يعبرون فى حديثهم وسلوكهم عن حيرتهم وعجزهم عن التصرف حيال حالات المرض الطارئة . فقدرة الطبيب الملحوظة ، وسرعته فى اتخاذ القرارات الحاسمة ، ومهارته ، وأوامره ومطالبه ، كل ذلك يضفى على شخصه تأثيراً قوياً إذا ما قورن بالأبوين المضطربين الحائرين . ولذلك لا يكون من المستغرب فى كثير من الحالات أن تفضى مثل هذه الخبرات بالأطفال إلى التعبير عن رغبتهم فى احتراف مهنة الطب .

وقد تكون هناك أسباب أخرى لظهور هذه الرغبة ؛ ومن ذلك أن صبياً فى السابعة من عمره ، كان أول فرقته فى جميع مواد الدراسة ، ذكر لمعلمته أنه اعتزم أن يكون طبيباً عندما يكبر . ودون أن تستقصى المعلمة أسباب ذلك الاختيار ، أنبأت الصبى أن فى وسعه أن يحقق رغبته إذا ما واظب على الجد فى عمله . ولكن أحد الزائرين ألقى على الصبى السؤال الآتى : « ماذا يعمل الطبيب ؟ » ، فأجاب الصبى بأنه لا يعلم عن ذلك شيئا . ثم ذكر فى إجابته عن سؤال آخر أن طبيباً عاده فى أحد الأيام ، فاختبر نبضه ، وقاس درجة حرارته ، ثم وصف له دواء . وأضاف الصبى إلى ذلك قوله إنه غير ميال إلى أداء مثل تلك الأعمال . وقد أوحت هذه الإجابة للزائر بإلقاء السؤال التالى : « إنك تبلغ من العمر سبع سنوات ، فما سنّ أخيك الأصغر ؟ » ، فقال الصبى : « أربع سنوات ... ولكنه ليس أخا ، بل أختا » . ثم أضاف على الفور : « كثيرا ما فكرت فى أن أكون نجارا » ، فسئل ثانية : « وماذا يعمل النجار ؟ » ، وعندئذ أجاب بقوله : « إنه يصلح الأشياء » . ثم استمر يقول : « إن أختى تحطم الأشياء دائماً ، وتثير غضب أمى » .

هذا المثال من الأمثلة المألوفة ، وهو يصور لنا حالة طفل كان يحظى بعناية فائقة موصولة ، حتى بات يعتبر ذلك حقاً عادياً من حقوقه . ولكنه أكره على أن يحتل المكانة الثانية بسبب مولد طفل آخر ، دون أن يكون مستعدا لاستقبال هذا الضيف الجديد . وعندما أراد الاستفسار عن

المكان الذى أتى منه الوليد ، شأنه فى ذلك شأن سائر الأطفال فى مثل هذه الظروف ، أنبأه والداه بأن الطبيب هو الذى أحضره ، فاعتقد الصبى أن فى مقدوره ، إذا ما أتيح له أن يكون طبيبا ، أن يتحكم فى أمور ليس لأبويه سلطان عليها . أما مدلول رغبته فى أن يكون نجارا فواضح ، إذ كان يعتقد أن فى الإمكان استعادة ما فقده من الحظوة لدى أمه إذا ما تمكن من إصلاح ما تتلفه أخته ، عندما تكون أمه غاضبة عليها .

ومن اليسير ذكر أمثلة أخرى كثيرة من هذا النوع توضح كيف أن اختيار الطفل لمهنة من المهن إنما يقوم على الرغبة فى أن يكون شخصاً ذا أهمية ، وأن يحتل مركزا يتيح له أن يصدر الأوامر بدلا من تلقيها ، فيعكس العلاقة بين الأبوين والطفل ، أو يستعيد ما كان مشمولا به من سابغ العطف ، وموصول الرعاية ، عندما كان صغيراً عاجزاً عن الاعتماد على نفسه . فاختياره محدود إذن برغبته فى الظفر بالإشباع النفسى .

وقد تنتاب الطفل فى مرحلة تالية من حياته الرغبة فى السير على منوال أبيه ، أو فى احتراف مهنة قريب يحبه ، أو شخص كبير آخر يعجب به ، ويميل إليه . ولكن اختياره لا يكون قائماً على فهم حقيقى لطبيعة العمل الذى يريده ، أو على رغبة أكيدة فى كسب أجر من ورائه ، بل إن كل ما يوده ، هو أن يغدو شبيهاً بشخص أثار إعجابه لسبب من الأسباب .

وكثيراً ما يظهر اتجاه آخر عنده فى المرحلة التى تعقب ذلك . وينبغى

obeikandi.com

ألا يغيب عن بالنا أن أطفال عمال وعاملات المصانع فى كثير من المناطق الصناعية ليست لديهم أيه فكرة عن طبيعة العمل الذى يقوم به آباؤهم . أما فى الأزمنة الماضية فقد كان أصحاب الحرف يعملون فى بيوتهم ، وكان العملاء يحضرون إليهم ، و يستشيرونهم فيما يريدون عمله ، و يدفعون لهم أجر ما يصنعونه لهم. ولهذا كان الأطفال يبصرون كيف يربح آباؤهم المال ، و يعرفون الكثير عن نوع العمل الذى يؤدونه ، كما أنهم كانوا يساعدونهم فيه عند ما يبلغون السن التى تساعدهم على ذلك ، وكانوا دوما على استعداد لتوارثه عنهم فيما بعد . ولكن أبواب المصانع الحديثة تحول دون اتصال الطفل بأبيه فى أثناء عمله ، فهو يعلم أنه يعود إليه آخر النهار مغبر الوجه ، مجهد الجسم ، كما أنه يحضر معه نقوداً فى أمسية معينة من أمسيات الأسبوع كذلك يعلم أنه يكون عقب عودته إلى بيته فى مسيس الحاجة إلى الاغتسال وتغيير ثيابه ، ثم الاسترخاء والراحة . و يعرف بعض وسائل إنفاق المال ، ولكنه يجهل كل شيء عن طرق كسبه . ولذلك لا يدهشنا أن نجد عدداً من الأطفال يذكرون ، فى إجاباتهم عن الاستخبارات[1] الدقيقة التى وضعت خصيصاً لمعرفة المهن التى يفضلها الصغار فى سن الحادية عشرة ، أو الثانية عشرة ، بالفرق النهائية من المدارس الابتدائية ، أنهم : « يفضلون المهن التى تكون ساعات العمل فيها قليلة ، والعمل سهلا ، والأجر كبيراً ، والعطلات طويلة » . وهكذا يعبرون عن رغبتهم فى حياة خالية من المشقة

---

(1) Questionnaires.

والإجهاد ، حافلة بقدر من الحرية يكفى لأن يعمل المرء ما يريد .

كذلك حدث فى إحدى المناسبات أن زار أحد الموظفين المحليين بمصلحة العمل مدرسة ابتدائية ليسأل عما إذا كان بين التلاميذ الذين على وشك مغادرة المدرسة من يريد العمل فى مصنع للحلوى ، أو إحدى المطابع ولكنه لم يجد من بين التلاميذ السبعة الذين قاربوا الانتهاء من دراستهم من له رغبة فى إحدى الوظيفتين . وقد حاول الرجل إقناعهم بأن كلا العملين سوف يتيح لشاغله فرصة كاملة لتعلم حرفة تدر عليه أجراً كبيراً فى المستقبل ، ولكن الأطفال جميعاً أصروا على الرفض . وعند ما أخذ الموظف يسأل كلا منهم على حدة عن نوع المهنة التى يميل إليها ، أجاب أربعة منهم دون تردد بأنهم يريدون أن يكونوا « ربابنة لعابرات المحيط » ولم يكن أحد منهم قد رأى قط إحدى هذه العابرات ، فلم يكونوا يعرفون عنها أكثر من أنها سفن ضخمة . وعند ما سئلوا عن أول خطوة ينبغى عليهم اتخاذها لتحقيق أملهم ، حاروا جميعاً فى الإجابة . وقد وقع لهم بعد ذلك ما لم يكن بد من وقوعه ، فإنهم اضطروا بعد مدة وجيزة من تخرجهم إلى الاشتغال بأعمال تافهة لا تفضى إلى غير البطالة ، أو بالمهن التى لا تعتمد على المهارة . وكان ذلك قبل ظهور النظام الأخير الخاص برفع السن لمغادرة المدرسة .

فوقوع الاختيار على « قيادة إحدى عابرات المحيط » باعتبارها المهنة المفضلة قد يكون قائماً على أساس إسهاب الصحف حينئذ فى الحديث عن

ربابنة تلك السفن ، ونشر صورهم ، وهم فى ثيابهم الرسمية الخلابة ، تحت عناوين ضخمة . وقد ذكر أحد الأولاد أن حياة أولئك الرجال « حافلة بالمغامرات » ، ولكنه لم يستطيع تحديد ما يعنيه بهذه العبارة . فالرغبة فى الظهور بالمظهر الأخاذ ، وفى الحظوة بالإكبار ، وحب البطولة ، كانت جميعاً العوامل التى حددت ذلك الاختيار .

وعلى الرغم مما قد يبدو فى مثل هذا النوع من الاختيار من سخف ، فلا ينبغى لنا أن نهمل شأنها ورفضها ، لأنها توحى فى الحقيقة بما ينشده الصغير من وراء عمله ، كما تنبىء لا عن استعداده لحب المهنة التى اختارها لنفسه فحسب ، بل عن استعداده أيضاً لكراهية أية مهنة أخرى لا تكفل له نوعاً معيناً من الإشباع الذى يفضى حرمانه منه إلى برمه بالحياة وقلقه ، وضعف إنتاجه ، وإخفاقه فى التعاون مع زملائه ، وإلى كثرة تغييره لنوع عمله أملاً فى الوصول إلى عمل يحقق له ما يسعى إليه من إشباع . ولكنه من ناحية أخرى قد يستمر فى أداء العمل الذى يكرهه من أجل الأجر الذى يتقاضاه ، ولكى يستطيع أن يستمتع بأوقات فراغه . واستمتاع المرء لا يعنى السعى وراء اللذة فى الحياة العادية ، بل يعنى اكتشاف مثيرات تعوضه عن ساعات العمل المضنى المفروضة عليه ، وعن الخضوع الموصول لنظام بغيض .

فالمطالبة بأن يكون العمل هيناً ، والأجر كبيراً ، والعطلات طويلة تعنى الرغبة فى الحصول على شىء لا يقدم له الفرد مقابلا ، كما تشير إلى أن

الطالب لم يزل بعد فى طور الطفولة المتواكلة ، وتوحى أيضاً بأنه يود أن يعمل تحت رياسة شخص يقوم منه مقام الأب أو الأم اللذين ألفهما فى حياته المبكرة ، واللذين كانا يزودانه بالمأكل والملبس والمأوى ، ويعطيانه مصروفه اليومى ، كما يمنحانه بين الفنية والفينة قدراً إضافياً من المال لشراء لعبة جديدة ، أو للذهاب إلى إحدى دور السينما ، دون أن يطلبا منه شيئاً مقابل كل ذلك .

ولقد كان من العبث أن نبين لأولئك الصغار مدى اختلاف هذه الفكرة التى تكونت فى أذهانهم ، عن الماهية الحقيقية للعمل . فهم قد ينصتون إلى ما يقال لهم ، ويفهمونه بالصورة التى يفهمون بها مختلف القواعد الشفهية ، وقد يكتبون عنه موضوعاً إنشائياً بديعاً ، ولكنهم مع كل ذلك لن يقتنعوا أو يتأثروا به . وقد يكون لهم بعض العذر فى ذلك ، فإنهم كانوا يشاهدون كل يوم بعض الذين كانوا إلى عهد قريب يخرجون كل صباح إلى مدارسهم ، قد أصبحوا الآن يربحون ما خيّل إليهم أنه قدر كبير من المال ، من وراء قيامهم بحراسة العربات التى تقطع شوارع لندن جيئة وذهاباً محملة بمختلف أنواع البضائع ، كما يستطيعون تسلية أنفسهم بقراءة المجلات الهزلية طالما كان فى وسعهم ألا يغفلوا عن مراقبة مؤخر العربات

فلم يكن فى مقدور الصغار أن يدركوا أن مثل هذا العمل التافه سيرمى بصاحبه وشيكا فى أحضان البطالة ، أو يجعل منه عاملا حقيراً غير متخصص تكرهه الأيام على قبول أتفه الأجور التى لا تكاد تقوم بأوده . فالأطفال

فى سن الثانية عشرة ، والثالثة عشرة ، والرابعة عشرة ، لا يستطيعون أن يشرئبوا بأبصارهم إلى المستقبل ، وأن يفكروا فى السنوات الخمس أو الست المقبلة . كذلك كان من الممكن إبان سنوات الحرب أن يغادر المدارس تلاميذ كبار السن نسبياً ، ولكن دون السن التى تؤهلهم للخدمة العسكرية فكان يُعهد إليهم بمهام مختلفة يتقاضون عنها أجوراً ضخمة ، مثل تنظيف المصانع ، ونقل أجزاء المصنوعات من آلة إلى أخرى ، وغير ذلك من ضروب العمل التى لا تتطلب إعداداً خاصاً ، أو مهارة ، أو تربية ، ولا تستلزم استخدام الذكاء إلا قليلا . ولكن هذا الوقت قد انقضى ، وستظل ذكراه عالقة بالأذهان مدة طويلة ، فإن كثيراً من الأولاد سيظلون على اعتقادهم — مثلهم فى ذلك مثل الكثيرين من الكبار — بأن أصحاب الأعمال ما زالوا فى انتظار خدماتهم ، وما زالوا على استعداد لإغراقهم بالأجور السخية دون مقابل ، ولهذا يكون من العسير إقناعهم بخطأ هذا الاعتقاد ، ما داموا — على حد تعبيرهم — « يستطيعون ذكر أمثلة محسوسة تؤيده » .

يضاف إلى كل ذلك أن الأولاد والبنات يولعون بقراءة الكثير عن الرجال والنساء الذين هبط عليهم الثراء فجأة ودون جهد ، نتيجة لتوفيق مفاجىء فى أحد مناجم الذهب أو آبار البترول . كما تتناهى إلى أسماعهم من حين لآخر أخبار بعض من أصابوا أرباحاً جسيمة من وراء المراهنة فى مباريات كرة القدم ، أو الاشتراك فى مسابقات الكلمات المتقاطعة ،

مما يجعلهم يؤمنون بأن النجاح فى الحياة يتوقف على الحظ ، أكثر مما يتوقف على الجد والمثابرة والعمل المتقن . وكثير من الكبار — وربما كان هذا حال الغالبية من المقامرين — يقامرون بمبالغ ضئيلة من المال ، ويجدون لذة بالغة فى انتظار النتيجة . وهم عموماً لا يكترثون لنوع النتيجة ، سواء أكانت نجاحاً أم إخفاقاً . بيد أن الكثيرين من الناس يؤمنون بأن الحظ لابد مقبل عليهم يوماً ما ، حاملا معه الغنى والثراء .

فلا بد للطفل إذن أن يكوّن عن العالم فكرة تتضمن بشكل واضح أثر استخدام الذكاء ، والإخلاص فى العمل ، وفهم طبيعة المركز الذى يشغله الفرد فى الحياة ، فى الظفر بالجزاء المادى والنفسى ، (بغض النظر عما يذكره بعض المحظوظين الناجحين فى عملهم عن أهمية الدور الذى تلعبه « المصادفة ») . فمن الناحية المادية يكفل العمل لنا ما يكفى حاجتنا من الغذاء والكساء والمأوى . ومن الناحية النفسية نشتق منه متعة ولذة ، كما يجعلنا نحس السعادة فى خدمة الغير ، وخاصة من نحبه منهم ، ويتيح لنا أن نظفر بالإشباع من وراء اعتراف الناس بقدرنا ، وبقيمة عملنا . كما يجعلنا قادرين على قضاء أوقات فراغنا بالشكل الذى نريده ، فإما أن نضاعف من الإشباع الذى خبرناه من قبل ، وإما أن نكتشف ألواناً جديدة منه .

ولم تكن مغادرة المدرسة فى وقت مبكر من شأنها أن تتيح للمدرسة فرصة كافية لإعداد تلاميذها للحياة التى هم مقبلون عليها عن طريق تنمية

النظرة السديدة إلى هذه الحياة عندهم . فكان الولد ، أو البنت ، يقبل على العمل الذى يعيد به إليه ، دون أن يكون مزوداً بغير النظرة الساذجة التي صورناها . ولم يكن يشذ عن ذلك منهم سوى من أسعده الحظ بأب من أصحاب المهن المحترمة ، أو من سراة القوم ، فإن التقاليد الاجتماعية لهذه الطبقات كانت تفرض عليهم الاستمرار فى تعليم أبنائهم حتى يبلغوا مرحلة المراهقة أو يتجاوزوها . وكانت المدارس التى يرسلون إليها أبناءهم ، والجامعات القديمة التى يتلقون فيها تعليمهم ، تقصر جهودها على تدريب طلبتها على أسلوب معين من الحياة يتمشى مع التقاليد السائدة ، وهى تقاليد « الرجل المهذب » ، فكانت تعدهم للخدمة فى الجيش أو الأسطول ، أو الانخراط فى سلك البلاط أو الكنيسة .

ولكن قانون التعليم الجديد فى انجلترا سيطيل فترة التعليم بالنسبة لكل طفل يلتحق بمدارس الدولة ، بحيث يقضى جانباً من مرحلة المراهقة فى المدرسة . وسيقسم الأطفال إلى فئات تتلقى كلٌّ منها النوع الذى يلائمها من التعليم . ويقوم هـذا التقسيم على أساس اختبار قدراتهم واستعداداتهم ، مع العناية برغبات آبائهم . ويتجه التفكير فى الوقت الحاضر إلى إنشاء أنواع ثلاثة من المدارس ، بعضها قائم بعمله فعلا الآن ؛ فيلتحق بالنوع الأول منها جميع الأطفال الذين يحتمل أن يجنوا فائدة من التعليم الذى لا يختلف عن النوع المألوف فى المدارس الثانوية الحالية ، وهو الذى يعدهم للوظائف العامة ودخول الجامعات ، طريق الاطلاع

والدروس التقليدية ، و إجراء التجارب فى المعامل . و يلتحق بالنوع الثانى الأطفال الذين يلائمهم التعليم الفنى الذى لا يهمل شأن الكتب والدروس النظرية تماماً ، ولكنه يهتم قبل كل شىء بتدريب التلاميذ على العمل الحقيقى فى المصانع والمعامل . أما النوع الثالث فلم يتحدد بعد تمام التحديد ، ولكننا نستطيع أن نتكلم عنه مؤقتاً باسم «المدارس الحديثة»(١) ، ووظيفة هذه المدارس إعداد التلاميذ للحياة الحديثة عن طريق تزويدهم بقدر ملائم من « التربية العامة الحسنة » ، و يدخلها غير ذوى الاستعدادات الخاصة أو الذين يعتزمون احتراف المهن اليدوية ، أو الأعمال العامة .

ولما كان من غير المحتمل أن يكون تقسيم الأطفال فى سن الحادية عشرة نهائياً مهما بذلنا من حرص وعناية ، فلا بد أن تعتبر السنوات الأولى فى جميع المدارس على اختلاف أنواعها مرحلة تمهيدية ، يقصد بها اختبار مدى ملاءمة المدرسة لحاجات التلميذ ، بحيث يمكن نقله فى أى وقت إلى أحد النوعين الآخرين إذا ما اقتضت الضرورة ذلك . وهذا يتطلب توحيد مناهج الدراسة فى هذه المرحلة التمهيدية ، حتى لو اختلفت طرق التدريس فيها .

وفى النوع الثالث من المدارس ، أى « المدرسة الحديثة » ينفسح المجال أمام المعلمين والمشرفين على إدارتها لإجراء التجارب ، وذلك لخلوها من التقاليد الدائمة ، فإن حاضرها لا يستهدى بماضيها إلا قليلا ، كما أن

(1) Modern Schools.

obeikandi.com

ما يظهر فيها من مشكلات يفوق ما نصادفه فى مدارس اللغة(١) والمدارس الفنية . ويرجع ذلك إلى نظام الاختيار ، فإن تلاميذ المدرسة « الحديثة » لا ينتقون لها بسبب ما لديهم من مزايا ، بل بسبب ما ينقصهم منها . فهم الذين لا يصلحون لمدارس اللغــة أو المدارس الفنية ، أى المتخلفون بعد عملية الاختيار .

ولعل الزمن والتجربة كفيلان بهدايتنا إلى وسـائل ناجحة لتقسيم هذا الخليط المتنافر من الأطفال إلى فئات متجانسة ، كما أنهما قد يوحيان إلينا بطرق تعيننا على عمل تقسيمات أخرى ، وإنشـاء أنواع مختلفة من المدارس الحديثة . أما فى الوقت الحاضر فإن جدة المشكلة تضطرنا إلى توخى الحرص ، ومراعاة الحذر ، فى إبداء آراء قاطعة ، إذ ما زالت تنقصنا الحقائق التى نستطيع أن نقيم عليها مثل هذه الأحكام اليقينية .

وكل ما نعلمه هو أن هذه المدارس سوف تضم بين جدرانها طائفة من التلاميذ الذين يكون ذكاؤهم دون ذكاء تلاميذ مدارس اللغــة أو المدارس الفنية ، وإن لم يكونوا من الضعف العقلى أو التخلف بالدرجة التى تجعلهم فى حاجة إلى مدارس خاصة . فهم لا يظهرون من القدرات اليدوية والمهارات ما ينبىء عن صلاحيتهم للمدارس الفنية ، كما يبدو عليهم أنهم دون التلاميذ الصالحين لمدارس اللغة من حيث الاستعداد للاستفادة

(١) Grammar Schools. وهى مدارس ثانوية كانت فى الأصـل تتخذ من تعليم اللغة اللاتينية محوراً لنشاطها ، ثم تطورت بمرور الزمن إلى مدارس ثانوية نهارية تعد طلابها للامتحانات العامة ودخول الجامعات . (المترجم)

obeikandi.com

من طرق التدريس العادية والكتب . وإذا كان لديهم فعلا بعض القدرات والاستعدادات الخاصة ، فإنهم لم يستطيعوا إظهارها .

ويرجع ذلك فى أغلب الأحوال إلى الإخفاق فى معرفة كيفية استخدام الذكاء فى الحياة عن طريق استغلال الميول والاهتمامات ، أكثر مما يرجع إلى نقص فى هذا الذكاء . ولهذا سيكون من وظيفة المدرسة الحديثة تنمية الاهتمامات النافعة عند من لا يملكون منها شيئاً من الذكور والإناث على السواء .

وليس من العسير الإسراف فى تأكيد أهمية الذكاء ، فالزعماء ، والمفكرون ، والمخترعون ، والعمال الذين يؤدون أعمالا تحتاج إلى التصميم والابتكار ، كلهم رجال ذوو ذكاء فوق المتوسط . ولكن الذكاء المتوسط يكفى لمعالجة أمور الحياة العادية بنجاح ، ولا يخفق صاحبه فى ذلك إلا عند ما تعترض حياته بعض التغييرات المفاجئة التى لا يستطيع التكيف لها إلا ببطء ومشقة . أما معظم أمور الحياة المألوفة فى متناول ذوى الذكاء العادى ، أو الأقل من العادى فى بعض الأحيان ، وهؤلاء هم الذين يقنعون من حياتهم بالأعمال النمطية البسيطة التى يضيق الأذكياء بها ، لأنهم يعلمون وسائل أفضل لأدائها . وهكذا فإن الذكاء لن يعوق معظم تلاميذ وتلميذات المدارس الحديثة عن العثور فى ميادين العمل على مكان يلائمهم ، ويدرّ عليهم من الأجر ما يكفى حاجاتهم ، ولا يتطلب النجاح فيه قدراً من الذكاء أكبر مما لهم .

أما فى المدرسة العادية فإن الطفل ذا الذكاء العادى يكون معوقاً من الناحية السيكولوجية بسبب اضطراره للتنافس مع غيره ممن يفوقونه فى الذكاء فهؤلاء هم الذين يحظون بعناية المدرسين ، و يحتلون المراكز الممتازة فى فصولهم. و يصبح لزاماً على مدرسه أن يتعرف اتجاه اهتماماته ، و يربطها بدراساته ، حتى يستطيع إغراءه على توجيه هذه الاهتمامات إلى العمل المدرسى ، و يجعله يشتق من أدائه ما هو فى حاجة إليه من الإشباع . ولذلك لا بد للمدارس الحديثة من نخبة من المدرسين الأكفاء ، الذين يتميزون بالمرونة التى تعينهم على عرض هذه المادة بطرق متنوعة ، لا مجرد تقديمها لتلاميذهم بنفس الطرق التقليدية التى تلقوها بها ، كما تتميز نظرتهم إلى الأطفال بروح الفهم والعطف والمحبة .

وجلى أن إحدى الوظائف الرئيسية لهذه المدارس هى العمل على اتصال التلاميذ بالعالم الخارجى بكافة الطرق التى تكفل اهتمامهم به ، وتشعرهم بحقيقة مركزهم فيه . فلو أمكن تنظيم اتصالهم بمصالح الحكومة ، والمصانع ، والشركات ، وغيرها تنظيما مستمراً ناجحاً ، فإن التلاميذ سوف يدركون أن فى الإمكان الحصول على الإشباع النفسى عن طريق العمل ، وأن التعاون مع الآخرين يكفل لهم نفس اللذة التى يتيحها لهم اللعب فى الفريق ، وأن العمل المثمر فى العالم يتطلب بذل مجهود تعاونى ضخم ، يشعر كل فرد يساهم فيه بأنه عنصر هام من عناصره ، بمعنى أنه إذا انفصل عنه فلا بد لغيره أن يحل مكانه . وقد نجد من حين لآخر فى بعض الأذكياء من الأطفال ميلا

إلى النقد ، ولكن فى إمكاننا أن نجعلهم يدركون أن القدرة على النقد ، واقتراح وسائل أفضل للعمل ، سوف تصبح فى الموقف المناسب ذات قيمة كبرى للنظام الذين يساهمون فيه بنصيب .

ولقد ساد الاعتراف أخيراً بقيمة المناقشة كطريقة من طرق التربية . ومما لا شك فيه أن المناقشة لا تكون ممكنة إلا إذا كان المشتركون فيها مزودين ببعض المعلومات عن موضوعها . فإذا خرج التلاميذ فى رحلة لزيارة أحد المصانع مثلا ، وأتيحت لهم الفرصة للملاحظة الدقيقة والسؤال والاستفسار ، فلا بد أن يحفزهم ذلك إلى التفكير فيما وقعت عليه أبصارهم ، فيصبحون على استعداد لمناقشة ما استخلصوه من النتائج . فالزيارة والمناقشة تخلقان الشعور بالزمالة ، وتفضيان إلى الإشباع الذى يعتبر ثمرة لبذل المجهود الجمعى . وهذا فى ذاته عنصر هام فى العملية التى ترمى إلى جعل الطفل صالحاً للتعاون مع غيره فى العمل من أجل المعاش .

ولمناقشة الخبرة نتائج أخرى ، فهى تضطر الفرد إلى الانتباه إلى الخبرة ذاتها مقدّما ، إذ بغير هذا الانتباه لا يستطيع أن يشترك فى المناقشة بنجاح ، أما إذا أحسن الانتباه فإنه قد يكون قادراً على القيام بدور رئيسى فيها . كذلك تحفزه المناقشة على إعمال الفكر والتأمل فيما انتبه إليه ، حتى يكون فى وسعه أن يكون عنه فكرة يستطيع بسطها والدفاع عنها .

والولد الذى يقوم بزيارة إدارة الأمن العام ، أو أحد أقسام الشرطة ، ليتعلم شيئاً عن نظام فرض القانون فى المدينة أو الحى الذى يعيش فيه ،

وليعرف طريقة الانخراط فى سلك رجال الشرطة ، ووسائل تدريبهم . وطبيعة الواجبات الملقاة على عاتقهم ، وماهية السلطة التى يمارسونها ، هـذا الولد يستطيع ، من مثل تلك الزيارة ، أن يحصل على قدر من المعلومات يمكنه من مناقشة ما رآه مع زملائه فيما بعد ، ومن التعبير عن رأيه فيه ، والدفاع عن وجهة نظره ضد ما قد يوجه إليها من نقد . وكل ذلك يجعله مختلفاً تمام الاختلاف ، فى درجة ترقيه ، عن ذلك الصبى الذى اعتاد أن يعبر عن رغبته الساذجة فى أن يصبح يوما ما من رجال الشرطة . وليس معنى هذا أن الرغبات الـكامنة وراء رغبة الطفولة الأولى قد اختفت واندثر تأثيرها ، فالحقيقة أنها لا زالت موجودة ، وستظل كذلك مدى الحياة ، ولـكن كل ما حدث هو أنها اتخذت لنفسها اتجاهاً جديداً سليما ، إذ أصبح الصبى ميالا إلى إشباعها إشباعاً حقيقياً فى عالم الواقع لا فى عالم الخيـال . و بهذا غدا قادراً على اكتشاف مواطن الخطأ فى اعتقاده بأن مهنة الشرطى، أو ما شابهها من المهن الأخرى التى كانت محور تفـكيره وآماله ، هى الوسيلة الوحيدة لتحقيق رغباته .

وتتجه بعض التجارب التى تجرى فى المدارس الحديثة إلى الاهتمام بأداء العمل أكثر من الاهتمام بمجرد مشاهدته . ولـكن لما كان من العسير جعل المدرسة شبيهة تمام الشبه بالمصنع الحقيقى بما فيه من ورش وأقسام و إدارات فإن المدرسة تقنع بالأعمال التى تتطلب ممن يقومون بها أداء عمل حقيقى ، كأن يقوم الأولاد مثلا بإقامة مخيم دائم يشرفون على إدارته والعناية به

بأنفسهم ، أو إذا كانت المدرسة واقعة بالقرب من ساحل البحر فإنها تحصل على بعض القوارب التى يتعلم التلاميذ طرق استخدامها ، ووسائل المحافظة عليها . كذلك يستطيع التلاميذ والتلميذات تعهد مزرعة المدرسة بالعناية ، وأداء جميع ما تستلزمه من أعمال ، فيكافأون على ذلك بأخذ نصيبهم من ثمار أشجارها ، ولبن أبقارها ، ولحوم خرافها وجلودها . وهكذا يحيون نوعاً من الحياة مختلفا عن حياة أولئك الذين لا يحصلون على طعامهم إلا مقابل ما يقدمونه لغيرهم من مال لم يبذلوا من ناحيتهم أى مجهود لكسبه ، ودون أن يحاولوا إنتاج هذا الطعام بأنفسهم . وهذا شبيه بتلقى الطعام من الأم فى الطفولة ، أو المنح والهدايا من الأب فى الصبا . أما التلميذ الذى يتعاون مع أقرانه فى إنتاج غذائه بجهوده الخاصة ، فإنه يتعلم عن طريق الخبرة ما لحياة الراشد من معنى وقيمة .

وقد يوحى التحدث عن تنظيم المدرسة على هذه الصورة بضرورة التخلى عن المنهج الدراسى التقليدى . بيد أن هناك اعتراضات قوية ضد محو كل أثر للتقاليد ، فقد كان هذا المنهج التقليدى ذا تاريخ طويل حافل : وفى الوسع الدفاع عنه دفاعا معقولا ، لأنه قد أدى خدمات جليلة لأجيال كثيرة كما أنه ما زال نافعاً من بعض الوجوه . فالتطور مفضل على الثورة والانقلاب وقد نجد بين أنصار المنهج التقليدى بعض الرجعيين الجامدين ، ولكنهم ليسوا جميعاً كذلك . بيد أن الكثيرين منهم يشعرون بقيمة التربية التقليدية ، ولا يميلون إلى الانصراف عنها والاعتماد على شىء قد تنجم عنه

خسائر حقيقية ، على الرغم مما قد يكون له من المزايا الواضحة . وهذا يفسر لنا ظهور عدد كبير من الكتب فى الوقت الحاضر تبحث كلها فى المنهج ، وتدعو إلى تنظيم المؤتمرات ، وعقد اللجان ، لبحث وجوه إصلاحه .

ويدفعنا ذلك إلى التساؤل عن مصير الرياضة واللغات والتاريخ والجغرافيا والعلوم بالنسبة للتلاميذ الذين سينفقون كل وقتهم فى إقامة المعسكرات ، والعمل فى المزارع ، والانصراف إلى تسيير القوارب ، وزيارة المصانع وإدارات الحكومة ، وإنشاء إدارات مصغرة . ماذا سيكون مصير التربية ، و « التربية العامة الحسنة » التى أشاد بها تقرير (هادو) ، واتفق المربون على ضرورة اتخاذها هدفاً لكل مدرسة أيا كان نوع نظامها وأسلوب إدارتها ؟ وماذا عسى أن يكون مصير الفن والموسيقى ؟

لقد كان الاهتمام فى الماضى منصباً على ما لهذه المواد من قيمة فى التدريب الذهنى ، وكان الرأى السائد هو أن كلا منها يدرب « ملكة » خاصة من ملكات العقل ، وهى ملكات قد اختلفت الآراء من حين لآخر فى ماهيتها وعددها . وكان البحث فى أسرارها وخواصها من اختصاص رجال الفلسفة العقلية . ولكن انتقال « نظرية الملكات » إلى ميدان علم النفس أثار حولها الريب والشكوك ، فقد دلت التجارب الحديثة على خطأ عدد من النتائج المتعلقة ببعض تلك الملكات ، وخاصة فيما يتعلق بتدريب التذكر الذى كان يُعتقد أنه يتوقف على حفظ مقطوعات طويلة من الكتب المقدسة ، والمؤلفات القديمة ، والأدب الإنجليزى ، أو استظهار

التواريخ ، وما أشبه ذلك . ولكن هذه التجارب لم تنقض الرأى القائل بأن التدريب العقلى فى ناحية معينة قد ينتقل أثره إلى ناحية أخرى يكون بينها و بين الأولى عناصر مشتركة ، فقد أمكن التدليل على إمكان حدوث ذلك بشرط أن يكون الشخص شاعراً بوجود هذه العناصر المشتركة . فقد دلت التجربة على أن التلميذ قد يتعلم الطبيعة أو الكيمياء مثلا ، ولكنه يخفق فى إدراك أن النظرة العلمية إلى الظواهر المختلفة لا ينبغى أن تكون مقصورة على المعمل وحده ، أو أن منهج البحث العلمى لا بد من أن يطبق ، لا على الطبيعة والكيمياء وعلوم الحياة وحدها ، بل على مشكلات الحياة جميعاً . كذلك التلميذ الذى يتعلم أن مادة التاريخ تتكون من دراسة حياة الملوك ، وأعمال العظماء ، وقصص الحروب ، ونصوص المعاهدات ، لا يستطيع أن يدرك أن جميع ما يحيط به من أشياء ، سواء فى المدرسة أو ميدان الحياة ، له تاريخه أيضاً ، وأن الماضى يؤثر فى جميع مظاهر حياتنا الراهنة ، وأننا يستحيل علينا فهم الحاضر دون الاسترشاد بالماضى .

لهذا يحتمل إذا ما سارت بعض نظم التربية وفق المنهج التقليدى ، أن يتمكن التلميذ من إتقان مواد الدراسة ، والتفوق فى امتحاناتها ، والاستمرار على دراسة هذه المواد دراسة مستفيضة فى المدارس والجامعات ، ولكن ذلك لن يصل بنموه إلى الدرجة التى تجعل من هذه المواد جزءاً من حياته ، لا مجرد جزء من دراساته ، أى الدرجة التى تجعلها ذات تأثير تأثير فى تفكيره ونظرته إلى الحياة .

ومن المهم أن نلاحظ أن غالبية تلاميذ المدارس الفنية ، والمدارس الثانوية الحديثة ، لن يتح لهم دخول الجامعات ، وأن ما يتلقونه من تربية شكلية مدرسية سوف ينتهى بمجرد مغادرتهم المدرسة ، كما أن عدداً محدوداً من أفراد الأقلية التى يستمر تعليمها فى المدارس الثانوية إلى آخر مراحلها ، ثم يلتحقون بعد ذلك بالجامعات ، هو الذى سيتخذ من التاريخ ، أو الجغرافيا أو الرياضة ، أو العلوم مهنة له . فما الداعى إذن لأن نخضع المنهج التقليدى كله لنظام تربوى واحد ، كما لو كنا نهدف إلى الوصول بهم إلى هذه الغاية وحدها ؟

من ذلك نرى أن من الضرورى أن نهتم بكل من حاجات الطفل ومطالب المنهج معاً . فإن الاهتمام بالواحد دون الآخر لا بد أن يؤدى إلى نظرة ضيقة ذات جانب واحد ، ومثل هذه النظرة لا تصلح لحل المشكلة . وعلى الرغم من أن التلميذ قد يدرس التاريخ مثلا ، ومع ذلك يظل جاهلا بسائر نواحى الحياة ، فإن من المستحيل أن نكمل تربيته وتعليمه بدون بعض الإلمام بالتاريخ على أنه عملية حية تستحق التقدير . فلا بد إذن أن ندرس التاريخ فى المدرسة الثانوية الحديثة . ولكن أى نوع من التاريخ هذا الذى ندعو إلى تعليمه ؟ وأى الطرق ينبغى اتباعها فى تدريسه ؟ ومثل هذا يقال عن الرياضة والجغرافيا والعلوم . فدراسة العلوم مثلا قد تبدأ بالتعاريف والمبادىء الأولية ، أو قد تبدأ بدراسة ما يحتوى المطبخ الحديث من أدوات وأجهزة . كذلك قد يبدأ تدريس التاريخ بالعصر الحجرى ،

أو بدراسة الإدارة البلدية المحلية أو مكتب البريد ، أو يتخذ من السيارات نقطة بداية لتتبع تطور وسائل النقل تتبعاً رجعياً . كذلك من المستطاع تنمية المعلومات الرياضية عن طريق التنظيم الدقيق للحقائق الشيقة التى يجمعها التلاميذ بأنفسهم من شتى المصادر التى تتيسر لهم . وتنمية المعلومات الجغرافية عن طريق دراسة التلاميذ لمنطقة المحلية ، فلا يتعلمون بذلك الجغرافيا وحدها ، بل ويتعلمون أيضاً استخدام طرق الجغرافيا فى فهم البيئةالتى يعيشون فيها .

ولابد أن نذكر دوما أن مشكلات المنهج بالهيئة البسيطة . فقد يحاول بعض المصلحين إدخال تغييرات شاملة على المنهج حتى يغدو ملائماً لحاجات يحسون أهميتها وضرورتها . ولكن الإصلاحات المرتجلة قد تخلق من المشكلات أكثر مما تحل . وقد رأينا أن من الأهداف التى لا بد أن ترمى إليها تربية المراهق إزالة الصراع الذى قد يقوم بين تلك الاتجاهات النكوصية للطفولة ، والاتجاهات التقدمية لسن الرشد . وليس معنى هذا كبت حاجة الطفل إلى الإشباع النفسى ، بل إنه يعنى تحقيق هذه الرغبات فى عالم الراشدين . كذلك تهدف هذه التربية إلى تنمية الذكاء عن طريق استخدامه فى حل المشكلات الملائمة ، كما تهدف إلى تزويد الفرد بالمعلومات الضرورية للراشد الحسن التربية والتعليم فى العصر الحاضر ، وتدريب الانفعالات بشكل يفضى إلى الاتزان الوجدانى ، وإعداد المراهق لحياة الراشد بما تتطلبه من تعاون مع سائر أفراد المجتمع بصفته مواطناً وأباً وعاملا

ولذلك فإن كل تغيير فى المنهج لا بد أن يكون مسبوقاً بالدراسة العميقة حتى لا يكون الإصلاح فى ناحية على حساب ناحية أخرى .

ولقد كانت بعض الطرق الحديثة التى ظهرت فى الميدان فى أوقات متفرقة تقابل بالكثير من الحماس والترحيب . ولكن الزمن كان كفيلا بالكشف عن عيوبها ونقائصها . فطريقة المشروع[1] التى يقوم التلميذ فيها ، إما بنفسه أو بالتعاون مع غيره ، بتنفيذ عمل معين بناء على خطة موضوعة ، يبدو أنها فى حاجة إلى الاستعانة ببعض الطرق الأخرى لاستكمال ما بها من نقص . وطريقة دالتون[2] التى تقسم المواد فيها إلى إلى تعيينات يستعين التلميذ على دراستها بالكتب والمراجع ، ويستهدى برأى المدرسين المختصين كلما أحس حاجة إلى ذلك . تبدو أيضاً محدودة المدى ، وفى حاجة إلى معونة الدروس العادية والمحاضرات ووسائل الإيضاح ويمكن توجيه هذا النقد ، مع بعض التغييرات الضرورية . إلى سائر الطرق الحديثة .

وقد وُجّه كثير من النقد إلى طرق التدريس القديمة ، وهى الطرق التى تعتمد على إلقاء الدروس والمحاضرات ، إذ لم ير المصلحون المتحمسون منها سوى مواطن الضعف ، ومواضع النقص ، فعملوا على القضاء عليها قضاء مبرما . أما سواهم من المتروّين فقد اعترفوا لكل طريقة منها بميزتها

(1) The Project Method

(2) The Daltsn Plan

وحدود نفعها ، فعرفوا كيف يستخدمونها جميعا استخداما حكيما . فالمدرس الإنجليزى فى العصر الفكتورى لم تكن له يد فى اختيار طريقة العمل فى مدارس الدولة التى يقوم بالتدريس فيها . إذ كانت حجرات الدراسة مكتظة بالطلاب ، وكان المنهج ضيقاً صارماً ، والأبنية لا تتوافر فيها الشروط الصحية ، والأثاث رديئاً ، ووسائل الإيضاح ناقصة قليلة . فكان التلاميذ يلقون معاملة خشنة شبيهة بمعاملة المتطوعين فى سلك الجندية فى أثناء التدريب . أما المدرس الحديث فإن الواجب الملقى على عاتقه مختلف ، كما أنه أكثر إمتاعاً وإثارة للاهتمام ، وهو فى الوقت نفسه أشد صعوبة وأعظم مسئولية . فالمدرس يتمتع بقسط كبير من الحرية ، ولكن هذه الحرية تجر فى أذيالها التبعات الجسام .

كذلك استخدام مختلف أنواع الاختبارات يعمل على إحداث تغييرات كبيرة فى طرق التدريس ، وفى اتجاهات التلاميذ حيالها . فاستعمال اختبارات الذكاء فى الجيش أشعر كثيراً من الناس بقدرة المختبر على قياس درجة ذكاء الفرد ، وتحديد المهام التى تلائم قدرته العقلية . ولكن قليلا منهم استطاع أن يفهم حقيقة العمل الذى تقوم به لجان الاختبار ، وهو استخدام التجارب للتنبؤ بمدى احتمال نجاح فرد من الأفراد فى أداء عمل جديد عليه ، أو عمل سيبدأ فى التدرب عليه . ومع ذلك فإن القيمة التنبئية للاختبارات هى التى تفوق فى أهميتها قيمتها التشخيصية .

وقد أجمعت الآراء على أن اختبارات الذكاء الحالية أبعد ما تكون

عن الكمال . فعلى الرغم من استخدامها بنجاح فى تقسيم التلاميذ لمعرفة من يصلحون منهم للاستمرار فى التعليم ، أو لتحديد أنواع المدارس التى تلائمهم ، فإنها ليست مرضية بالشكل الذى ينبغى أن تكون عليه إذا ما شئنا أن نعتمد عليها تمام الاعتماد فى اتخاذ قرارات حاسمة بشأن الحالات المشكوك فيها . ومع ذلك نستطيع أن نؤكد الآن أن هذه الاختبارات أكثر الوسائل الميسورة نجاحاً فى التنبؤ .

فلدينا الآن منها ما يجعل فى استطاعتنا أن ننبىء أحد الأطفال عن مستواه العقلى ، وعما يحتمل أن يصيبه من نجاح فى عمل من الأعمال . كما نستطيع أن نفصل فى ضوئها عدداً من المهن التى تلائم مختلف القدرات التى يكشف عنها عالم النفس عند الطفل . فقولنا للولد ، أو البنت ، أنه يقدر على إتقان عمل خاص ، أو يملك قدرات معينة ، يولد عنده الثقة بالنفس ، ويجعل فى مقدوره أن ينظر إلى قدراته فى ضوء جديد ، كما يكشف له عن غاية للعمل تختلف عن غاية كسب الأجر ، وينبئه بأن مهنة معينة تتيح له الفرصة لإبراز مواهبه . وعندئذ يمكننا أن نحدد له أنواع الدراسات التى تكفل له الاحتفاظ بهذا العمل الذى يلائمه . فإذا اتبعنا الاختبار بالتوجيه الذى يعين الطالب على تبين الغاية التى ترمى إليها دراساته ، كى يجعل من هذه الغاية أمراً شخصياً يهمه ، فمن المؤكد أنه سوف يوجه جميع طاقاته نحو إعداد نفسه لشغل المركز الملائم له فى الحياة .

فالطالب الذى يعمل فى أحد المصانع أو المصالح بعد تخرجه فى

المدرسة ، ويتخذ من هذا العمل وسيلة للاستمرار فى الدراسة ، لا بد أن يجد فى عمله حافزاً له على محاولة زيادة فهمه له بدراسته . وهنا أيضاً نجد أن فهم طبيعة مشكلاته فهماً مشوباً بالعطف ، وتقدير اتجاهاته حيال هذه المشكلات ، سوف يساعد كثيراً على توجيه ميوله نحو مسالك نافعة . ولا شك أن إقبال المصانع نفسها على استخدام المشرفين الاجتماعيين الذين يفهمون مشكلات المراهقين الناشئين ، ويوالون الاتصال الوثيق برجال التربية وعلماء النفس ، لا بد أن يؤدى إلى الحد من عنف الصراع القائم بين رغبة الناشىء المكينة فى الوصول إلى حياة الرشد من ناحية ، وبين ميله إلى التعلق بأهداب اتجاهات الطفولة ومطامحها من ناحية أخرى .

وقد يقال فى بعض الأحيان أن المربى ، إذ يعد الطفل لحياة الراشد كما يعرفها هو ، إنما يجعل من نفسه داعية للنظام القائم . ولكى نتجنب الجدل العقيم لا بد لنا أن نحدد معانى الألفاظ التى نستخدمها . ليس من الدعاية فى شىء أن نذكر ما نعتقد أنه الحقيقة ، بل الدعاية هى أن نبسط الحقائق بصورة يقصد بها حمل الناس على تصديقها ، وتغيير سلوكهم وفقاً لذلك . فالمربى الذى يؤمن بالتربية ، ويحاول دوما أن يغرى سواه من الناس على مشاطرته هذا الإيمان ، والعمل بمقتضاه ، قلما يستطيع تجنب اتهام الناس له بالدعاية للتربية . صحيح أنه يقدم لنا الحقائق كما يعرفها ، ولكنه يتجاوز هذا الحد بكثير ، لأنه يطلب من سامعيه أن يتخذوا من تأويله لهذه الحقائق مقدمات يستنبطون منها ضروب السلوك الصائب ،

وأنواع السلوك الخاطىء . ومن ثم يكون عليهم أن يكيفوا سلوكهم وفق هذه النتائج . فهو إذن لا يعرض الحقائق عن التربية بأسلوب الكيميائى المجرد عن الهوى ، الحافل بالمعادلات الجامدة الصارمة ، أو بأسلوب الجيولوجى الذى لا يهتم بغير تحديد عمر الأرض ، فإن كلا من الكيميائى والجيولوجى يقدم لنا الحقائق كما هى ، دون أدنى اكتراث بإيماننا بها ، أو إنكارنا لها ؛ فإذا آمنا بها فنحن على صواب ، وإذا أنكرناها كنا على خطأ .

ويحاول المربى ، من الناحية العملية ، أن يستغل الحقائق ، لا ميوله الخاصة ومعتقداته ، فى تحقيق غاياته . فالأطفال قادرون على أن يكتشفوا بأنفسهم صدق بعض الحقائق ، وزيف البعض الآخر . وفى الحالات الأكثر تعقيداً ، كالمثال الذى أوردناه ، نجد أن التلاميذ أثناء دراستهم لطرق العمل المتبعة فى الإدارات المحلية مثلا ، يلاحظون كل شىء بأنفسهم ، ويلقون من الأسئلة ما يعنّ لهم ، كما يستخلصون من النتائج ما يستطيعون استخلاصه . وهكذا تظهر وجهات النظر المختلفة فى حلقات المناقشة ، وينبرى لها المؤيدون والمعارضون ، ثم يلجأ التلاميذ عادة إلى سؤال المدرس عن أسدّها ، وبدلا من أن يدلى المدرس برأى قاطع يقفل به باب المناقشة ، يكون عليه ، بوصفه رئيس الجماعة ، أن يطلب إليهم التفكير فى النواحى المختلفة لموضوع البحث ، ويوالى توجيه انتباههم إلى الحقائق التى يكونون قد غفلوا عن تناولها والتعرض لها . وهذا أمر مختلف

تماماً عن التحزب لرأى من الآراء ، أو استغلال المدرس لنفوذه وسلطته فى فرض معتقداته الشخصية على التلاميذ . فموقف المدرس من الحالة الراهنة لا بد أن يكون موقف من يذكر أن هذه الحالة حقيقة واقعة ينبغى قبولها كما هى . ولكن عليه أيضاً أن يشير إلى أن الحاضر ليس أكثر من نقطة جزئية فى كل دائم التغير ، وأن تغير هذا الكل إنما هو نتيجة لجهود من يعملون فى داخله من الرجال والنساء . كما يشير إلى أن من واجب كل فرد يحس فيه نقصاً أن يدخل إلى الميدان ، ويحاول بطريقته الخاصة أن يحدث فيه ما يود من التغيير والإصلاح . فبعض الناس لا بد أن يكون من العمال ، والبعض الآخر من الكتّاب ، أو الخطباء ، أو أعضاء المنظمات السياسية أو الهيئات الدينية ، ولكن لا بد لكل واحد منهم أن يتحمل نصيبه ، كفرد راشد ، من مسئولية ما يعتزم الإقدام عليه من عمل يعتقد أنه أفضل الوسائل لإصلاح النقص الذى لمسه . قد يكون هذا دعاية وقد يكون تربية . فهو تربية من حيث أنه يدرب التلاميذ على إدراك الحقائق المسلم بها . وهو دعاية بقدر ما يعبر عن العقيدة الديمقراطية ، وبقدر ما يحفز الطلاب إلى الإيمان بها ، ولكنه ليس بحال من الأحوال من نوع الدعايات التى يقصد بها خدمة حزب أو مذهب سياسى .

فإذا نظرنا إليه على أنه دعاية ، فلا بد لنا أن نؤكد ضرورته لإعداد الناشئين لحياة الكبار فى المجتمع ، لأنه يعرفهم بالمجتمع الذى يعيشون فيه بحالته الراهنة ، وبنوع الحياة السائدة فيه ، وهى الحياة التى سوف يحيونها

فى العالم القائم ، وليست الحياة المعنوية فى عالم خيالى . كما أنه يعينهم على تكوين مثل عليا للحياة وللعالم ، وهى مثل يحتمل أن تفصل الحقيقة والواقع . فهو لا يجعلهم قانعين بمجرد المتع الوضيعة ، والملاذ الرخيصة ، بل يعدهم لنشدان السعادة فى عالم يأملون أن يجعلوه أفضل مما هو عليه بجهودهم ، حتى يكون فى وسعهم أن يحيوا فيه حياة فاضلة سعيدة .

obeikandl.com